الشيخ محمد البشير الإبراهيمي×
وجهوده في خدمة اللغة العربية، ونهضة سورية الحديثة

أ. د. محمد مهداوي

مدخل

أمضى الشيخ الإبراهيمي حياته مناضلا من أجل اللغة العربية، ومربيا للأجيال على حبها، وحب الإسلام ،لأنها لغة القرآن الكريم ،وقد بلغ حبه للعربية والعروبة إلى حدّ التعصّب ،لأنها جزء من الأمة العربية، أصابها ما أصاب العرب ،من وهن وضعف ، في ظل الخلافة العثمانية، ثم تحت الاحتلال الأجنبي في كثير من الدول العربية.

وصل الإبراهيمي إلى سورية قادما من الأراضي الحجازية، مع من قامت الدولة العثمانية بترحيلهم من المدينة المنورة ، بسبب ثورة الشريف حسين بن علي ، التي أخذت في الانتشار بين السكان في ذلك الوقت (بداية القرن الماضي).

استقراره بدمشق:

دخل الإبراهيمي دمشق في ١٩١٧م، وكان يحن إليها –قبل ذلك– ليلتقي بعالميها الجليلين (عبد الرزاق البيطارو(جمال الدين القاسميحيث يقول: "...خرجت من المدينة –فيمن خرج– إلى دمشق... وكنت أتمنى لو أن دواعي ذلك الخروج كانت تقدمت ببضع سنوات ، لأدرك الإمامين اللّذين كانت لهما في نفسي مكانة ، وهما: عبد الرزاق البيطار، وجمال الدين القاسمي، وكنت –وأنا بالمدينة– قرأت للقاسمي عدة كتب عرفت منها قيمته ومنزلته، وقرأت عن البيطار وسمعت ما دلّني عليه وأدناني منه..." ١. ثم يقول: "فأخبرني ذلك الشاب، أن الله تعالى أبقى في بيت البيطار وارثا لعلم الإمامين ومشربهما في الإصلاح، هو الأستاذ محمد بهجة البيطار...) ، وفي دمشق التقى الشيخ بعلمائها، فطاب له المقام بها، حيث يقول الإبراهيمي: "... وكثر الصحبة، وما منهم إلاّ السابق المغبر والكاتب المحبر، واللّسن المعبر، فكنا لا نفترق من اجتماع، إلا على موعد الاجتماع..." ٢.

وألحّ عليه بعضهم بالرغبات يرجونه أن يعلّم في المدارس الأهلية، فاستجاب، كما طلب منه بعضهم أن يعطي دروسا في الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي العريق، لم يمتنع، بل رحّب بالفكرة وسرّ بها، فانتصب تحت قبّة النّسر الشهيرة بالجامع الأموي، يلقي دروسه في الحديث والتفسير، على طريقة الأمالي السلفية، فكان يملي الحديث من حفظه بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثم يشبعه تفسيرا وشرحا، بما يوافق روح العصر وأحداثه فجذب الناس إليه بغزارة علمه وكثرة حفظه، وحسن إلقائه وطريقة عرضه، وصرف جلّ عنايته إلى العلم والعلماء، فكان كثير البحث والدّرس غزير المطالعة، دائم الاستقصاء، حتى سطع نجمه، في تلك الفترة لنبوغه واعتماده على نفسه، وصار يعدّ من مشاهير العلماء.

يقول الإبراهيمي: "...وفي دمشق اتّصل بي جمال باشا بواسطة عون من أعوانه، يريدني على أن أخدم سياسته بقلمي ولساني، فتجافيت عن ذلك بتحايل لطيف، فحملني جمال على أن أكون أستاذا للعربية في السلطاني ،وما كدت أباشر بها عملي حتى ذهب جمال باشا، ثم ذهب السلطان العثماني بعده بقليل، وأصبح التعليم كلّه عربيًا، وأصبحت بذلك أستاذا للآداب العربية ، وتاريخ اللغة وأطوارها وفلسفتها في المدرسة السلطانية الأولى، واطمأنّت بي الدار، إذ وقعت على وظيفتي الطبيعية..." ٣، كانت هذه المدرسة "المعروفة بمكتب عنبر" أوّل ثانوية في القطر السوري "تشبه المعاهد العليا في أيامنا هذه..." ٤، حيث ينتخب لها أحسن الأساتذة، وأبرز العلماء٥.

في هذه الثانوية كان الشيخ الإبراهيمي يدرس الصفوف النهائية، المرشّحة لنيل البكالوريا، فقام بعمله أحسن قيام، حيث كان ينتخب لطلابه من نصوص الأدب العربي شعرا ونثرا أجود

النصوص وأرقاها، من حيث المعاني واللغة والبيان العربي، ويشرحها لهم بطريقة منهجية رائعة، لا يشعر معها الطالب إلاّ بالمتعة والرغبة في المزيد، فيشدّهم إلى درسه، شدا لا يشعرون معه بالوقت حتى يفاجؤوا بانتهاء حصّتهم مع الشيخ، يقول أحد طلبته وهو الدكتور جميل صليبا: "...أعجبنا بسعة علمه، وقوّة ذاكرته، واستقامة نهجه، لأنّه كان يملي علينا قصائد المتنبّي والبحتري وأبي تمام، من حفظه، من أوّل القصيدة إلى آخرها، ويقرّب معانيها منا بالتفسير المحكم، والشرح الدقيق، والتعليل الأدبي الجميل، حتى ولّد في نفوسنا حبّ اللغة العربية وآدابها..." ٦.

كان بالإضافة إلى عمله في التدريس ، يواصل إلقاء خطبه ودروسه بالجامع الأموي، وفي الندوات العلمية والمجالس الأدبية ، وكان أصحابه يحبّونه ويعجبون به، لأنّه كان متواضعا صافي الطوية، بالغ المرح مع خاصّته، يبادلهم النكت الطريفة ويملأ مجالسهم بالفكاهة الظّريفة وينشر لهم ما يسلّيهم من قصص الأعراب ونوادرهم وأمثالهم، وكما كان يحبّ العلم، كان كذلك يحبّ العلماء ويجلّهم ويسارع إلى لقائهم وخدمتهم؛ ولذلك أحّبه الناس وأجلّوه . و نشاطه العلمي المكثّف ،لم يثنه عن ملاحظة الوضع السياسي القائم بالبلاد السورية، والمشاركة في الحركات التحررية، فعمل مع عدّة أندية كانت تسعى إلى توحيد العرب والمسلمين وخاصة (النادي العربي) (الّذي أسّسه د. عبد الرحمان شهبندر) ٧، كما كان مؤيّدا للثورة العربية ، التي دخلت دمشق بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ، وخروج الأتراك منها، في أيام الدولة العربية. طلب الأمير فيصل من الشيخ الإبراهيمي أن يعود إلى المدينة المنورة ليتولى إدارة المعارف بها، فأبى)٨ لأنّه كان ينوي العودة إلى وطنه الجزائر ،الّذي كان في أمسّ الحاجة إلى أمثاله في تلك الظروف العصيبة ،التي كان الشعب الجزائري يعاني منها ،تحت الاحتلال الفرنسي .

وبهذه الجهود العظيمة ، يكون الإبراهيمي قد شارك في بناء صرح النهضة العربية بالديار السورية منذ بدايتها، وكانت أيامه بالشام عامرة مثمرة، ظلّ يعتزّ بها، ويعدّها من أسعد أيام حياته حيث يقول: "...فأشهد صادقا أنّها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنّها هي الجزء العامر في العمر الغامر، وأنّني كنت فيها أقر عينا وأسعد حالا..." ٩.

ثمّ يصف يوم خروجه من دمشق والرفاق يودّعونه في محطة البرامكة، فيقول: "...ويا يوم الوداع ما أقصاك وإن كنت لا أنساك، لا أنسى بعد ثلاثين سنة ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات، وتلامذتي الأوفياء، جميل صليبا، وبديع المؤيد ونسيب والأيوبي، يقدّمون إليّ بخطوطهم كلمات في ورقات، ما زلت محتفظا بها احتفاظ الشّحيح بماله..."(١٠. ولم تكن تلك الأيام التي أمضاها الإبراهيمي في ربوع دمشق لتنسيه وطنه الجزائر التي كانت تحت الاحتلال.

أما طلبة الشيخ فهم كثر لا يمكن حصرهم، فقد قضى معظم حياته معلما ومربيا ومرشدا، متنقلا بين الجزائر والحجاز ودمشق ومصر؛ أما في الجزائر فمنهم من تتلمذ عليه مباشرة، ومنهم من تتلمذ على كتاباته في جريدة البصائر، تلك الكتابات التي شكلت إطار المدرسة المحافظة(١١ في الأدب العربي الجزائري الحديث، من حيث الأشكال والقوالب التعبيرية.

أما الإبراهيمي نفسه فلا يذكر من تلامذته سوى ذلك الرعيل الأول منهم، الّذين تتلمذوا عليه في المدرسة السلطانية بدمشق بعد الحرب العالمية الأولى، حيث يذكر منهم في قوله: "...وتلامذتي الأوفياء: جميل صليبا وبديع المؤيد، ونسيب والأيوبي..." ١٢، ثم يذكر في مقال آخر: عدنان الأتاسي وأديب الرمان ومصطفى المحايري١٣ وجميعهم من تلامذته السوريين ، الّذين كان لهم النصيب الأوفر في بناء النهضة الحديثة بفروعها: العلمية والفكرية والأدبية، فقد أحبّهم وأخلص في تعليمهم، فأحبوه، إذ يتجلى ذلك في قول د.جميل صليبا: "...ولعلنا لم نحب هذه اللغة العربية إلا بتأثير حبنا للشيخ أولا، فقد أحببناه حبا عميقا وانتقل هذا الحب منه إلى مادته، ولا غرو فقد كان رحمه الله من أعظم الناس في أعيننا وكان الّذي حببه إلى نفوسنا تواضعه ولطفه ووقاره وشجاعته وعفته وشعوره بكرامته وحرصه على القيام بواجباته وتعلقه بالقيم الإنسانية المثالية..." ١٤، ويقول الأستاذ مصطفى المحايري: "... عرفت الشيخ الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي في مكتب عنبر سنة ١٩٢٠م وأنا تلميذ بالسنة النهائية، كان رحمه الله، يدرسنا اللغة العربية وآدابها، وكان التعليم العربي في بداية نشأته في سورية، بعد انتهاء العهد التركي بها، وتفتحت أذهاننا

على الأدب العربي وكنوزه، بفضل دروس العلامة الإبراهيمي الّذي كان ينتخب لنا من المحفوظات أرقاها وأسماها... لا أحد أثّر فينا من أساتذتنا مثل شيخنا الإبراهيمي: علما وأدبا وخلقا، وما أظن أن الأمة العربية رزئت في شخص عالم، مثلما رزئت في شيخنا الإبراهيمي الّذي كان عالما بالفقه واللغة والأدب..." (١٥. وكما يتذكر هؤلاء الطلبة شيخهم وأستاذهم بإجلال، فهو الآخر لا يفتأ يذكرهم كلما تذكر أيامه بالشام، لأنهم عنوان فخره وثمرة جهوده.

وطالب العلم في –رأي الإبراهيمي– يجب ألا يكون محدود الأفق بنوع واحد من القراءة، حتى يكون ابن عصره في الثقافة والفكر وهذا لا يناقض التخصص في نوع معين من الدراسات العلمية حتى أنه في دروسه ومحاضراته كان مثلا رائعا لمن أدرك حقائق الثقافتين الصفراء والبيضاء فأحسن الانسجام والتوفيق بينهما. ومكّنته ثقافته تلك أن يدرك معنى العلم ومعنى العلماء فوصف العالم قائلا: "إنّ العالم في أوروبا لا يعد عالما إلا إذا زاد في العلم شيئا أو كشف من خفيه شيئا، أو جلى من غامضه شيئا، ونفض –مع ذلك– على العلم من روح زمنه شيئا، ولا عجب، فالعلم عندهم ياقوتة في منجم، وعندنا: لفظة في معجم، والأولى تستخرج بالبحث والإلحاح، والثانية تستخرج بمعرفة الاصطلاح، والأولى حظ المجتهد العالم والثانية حظ المقلد الخامل..." ١٦.

حبه المفرط للعربية والعروبة:

أحب الشيخ الإبراهيمي اللغة العربية إلى حد التعصب، ولعل بعض السبب في ذلك يرجع إلى ظروف نشأته في بيت علم، وتتلمذه في جميع مراحل دراسته على يد شيوخ من ذوي الثقافة العربية التقليدية ذات الطابع الديني، سواء داخل الوطن أو خارجه، فقد شب الرجل وشاب على العربية وحدها إذ يقول: "وأنا لاحظّ لي في شيء من هذه اللغات، ولم يفتق الله لساني إلا بالعربية، وأنا راض بهذا...")١٧، وإذا كان تعليمه مركزا على العلوم الدينية، فإن ذلك يستوجب –بالضرورة– التعمق في لغة العرب شعرا ونثرا، لفهم النصوص الإسلامية والغوص في مدلولاتها، وهو الأمر الّذي دفع الإبراهيمي إلى التفقه في العربية، ومعرفة أسرار الجمال فيها، فازداد تعلقا بها، إذ يقول –مخاطبا أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة بمناسبة انتخابه عضوا عاملا به– "... أيها الإخوة: لقد كنا معشر المشغوفين باللغة العربية، الهائمين بحبها في كل واد، نتتبع أعمال هذا المجمع باهتمام، ونتلقف كل ما يقوله أو يقال عنه، فنبحثه في مجتمعاتنا الخاصة بإنصاف، ونستعرضه فصلا فصلا، وكلمة كلمة...")١٨.

وفي الخطاب نفسه، يشير الإبراهيمي إلى أن واجب المجمع، يفرض القيام بعملية توسيع اللغة العربية، بإدخال المصطلحات العلمية والحضارية، ولكن بطريقة عملية، تعتمد النحت والقياس والاشتقاق فلا تدخل اللفظة إلى اللسان العربي، إلا إذا تزيّت بالزي العربي، وانسجمت مع قواعد اللغة العربية، حيث يقول: "... ونستحسن تلك الأفكار الجريئة في توسيع دائرة النحت والقياس والاشتقاق التي كان المجمع يتناولها بالتمحيص إلى كثير من حسناته ومزاياه..." ١٩. ويظهر تعصبه للعربية حين يقول: "...وأشد ما كنا ننكر من أعماله (المجمع) استعانته بالمستشرقين في شأن هو من خصائص الأمة العربية... إلا شيئا واحدا ما كنا نقبل فيه عذرا ولا نتسامح فيه فتيلا، وهو مسألة الاستعانة بالمستشرقين، ولقد كنا نستسيغ الاستعانة بالأجنبي في بناء سد، أو مد سكة، أو تخطيط مدينة، مما سبقنا إليه الأجانب وبرعوا فيه. أما الاستعانة بهم في شأن يخصنا كاللغة... فلا... ومتى رأينا مستشرقا بلغ في العربية وفهم أسرارها ودقائقها ومجازاتها وكناياتها ومضارب أمثالها ما يبلغه العربي في ذلك كله؟... على أن بعض أولئك المستشرقين الّذين كانوا أعضاء بهذا المجمع، كانوا مستشارين في وزارات الخارجية من بلدانهم، وهذا قادح آخر يضاف إلى قادح قصورهم في اللغة العربية...")٢٠.

إن حكم الإبراهيمي على المستشرقين بالضعف في العلوم العربية، وباستغلالهم العلم لخدمة الاستعمار لم يأت اعتباطا، وإنما هو حكم مستنبط من تصرفات بعض المستشرقين المنافية لموضوعية العلم والعلماء، فقد تأكد لدى الإبراهيمي أن المستشرق الفرنسي (لوي ماسينيون) هو الّذي أوعز إلى المستعمرين في الجزائر بالاستيلاء على الأوقاف، لحرمان الجزائريين من الانتفاع بها، في ميادين التعليم العربي الديني، والأعمال الخيرية، وهو الّذي قام بتشكيل (لجنة فرانس–إسلام) ٢١ في الخمسينات بأمر من حكومته، فكتب الإبراهيمي إبان ظهورها مقالات متسلسلة على صفحات جريدة البصائر، يكشف فيها عن نوايا هذه اللجنة العدائية للإسلام وعن الأفكار الاستعمارية لصاحبها، حيث قال: "...

نحن نعد هذه اللجنة (تدجيلة) جديدة في السياسة الفرنسية الاستعمارية تفتق عنها ذهن مستشرق (حكومي)-(لوي ماسينيون) ممن يجعلون الاستشراق ذريعة لاستهواء الشرقيين المفتونين بالغرب.... وأنا أسمي ثلة من هؤلاء المستشرقين (حكوميين) تسمية صادقة أصدر فيها عن روية وتثبت... فهم رواد عقليون قبل القواد العسكريين... ومن هذه الطائفة صاحب فكرة (فرانس-إسلام)، فهم غير أهل لاحترام العالم العلمي وإجلاله..." ٢٢.

ومن تعصبه للعربية قوله: "...وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر، الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها...")٢٣. وقوله: "...واللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم، وبحثوا في كل فن وملؤوا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات، وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمذاني في تخطيط جزيرة العرب، وكتاب الجاحظ في الحيوان، وكتب الأئمة في الطب والنجوم والإبل، رأى العجب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها وعَلِم مقدار أفضالها على الأمة العربية، كما أنه من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة، وشعر الشعراء الوصافين من الأندلس، يتجلى له أيّ إفضال أفضلته العربية على تلك القرائح الوقادة التي وجدت في العربية فيضا لا ينقطع مدده، وأضافته إلى فيض الاستعداد، وما أمتن الإنتاج الأدبي إذا كان يصدر عن اتساع في اللغة واتساع في الخيال...")٢٤. وهذا التعصب الشديد للعربية، يصحبه وعي عميق بالأبعاد الحضارية للغة ووظيفتها في تطور الأمم والمجتمعات إذ يقول: "... ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات..." ٢٥. ثم يقول في موضع آخر: "...ذلك لأن لغة العرب، قطعة من وجود العرب، وميزة من مميزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة..."(٢٦، ولعل تعصب الإبراهيمي للغة العربية والعرب لم يكن في حقيقته إلا ردّة فعل في وجه تيار الفَرْنسة الّذي أخذ ينتشر في صفوف الشباب الجزائري، وخاصة من أخذ منهم بنصيب من الثقافة الفرنسية، وتعلق بأهداب الحضارة الغربية، فغدا ينظر إلى العربية نظرة ازدراء واحتقار، على أنها هي سبب تأخر العرب وتخاذلهم في هذا العصر، ولذلك راح الإبراهيمي يستقرئ التاريخ العربي ويستوقف في مراحل قوته بأحداثه وتطوراته على صدق نظرته إلى تفوق العربية على غيرها من اللغات.

اللغة والشخصية الوطنية:

ليست اللغة ألفاظا وكلمات فحسب، وإنما هي آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير وأنماط سلوك، ولذلك ليس من الغرابة في شيء أن يؤمن الإبراهيمي -كما آمن الفيلسوف الألماني (فخته) قبله- بقدرة اللغة على رفع معنويات الأمة وإعادة وحدتها وتوطيد أركانها فقد عدّ (فخته) اللغة عاملا ضروريا بجانب المقاومة المسلحة لاستقلال ألمانيا وإعادة وحدتها)٢٧.

وعدّ الإبراهيمي اللغة عنصرا هاما في تحقيق السيادة الوطنية والقومية إذ يقول: في معرض حديثه عن اللغة الأوردية بباكستان "...وأنا أستحسن أن تكون اللغة الأوردية هي اللغة الرسمية... تقريرا للسيادة القومية وللاستغلال، إذ ما دامت اللغة الانجليزية هي لغة الدواوين والتعليم والاقتصاد، فإن الاستقلال ناقص على أهون الاعتبارات إن لم نقل إنه صوري..." ٢٨. ويقول في موضع آخر: "...إن هذه الأمة تعتقد -وتموت على اعتقادها- أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني وشرط في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لها فيه رأي، ولم يفترق لها قصد...")٢٩. ثم يقول: "...لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، والأمة ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك -أنها حافظة دينها- ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها، ...فهي لذلك تشد عليها يد الضنانة. وما تود أن تبدل بها لغات الدنيا، وإن زخرت بالآداب وفاضت بالمعارف، وسهلت سبل الحياة وكشفت عن مكنونات العلم فإن أخذت بشيء من تلك اللغات فذلك وسيلة إلى الكمال، في أسباب الحياة الدنيا، أما الكمال الروحاني والتمام الإنساني، فإنها لا تنشده ولا تجده

في لغتها التي تكوّن منها تسلسلها الفكري والعقلي، وهي لغة العرب... فإذا حافظ الزنجي على رطانته ولم يبغ بها بديلا، وحافظ الصيني على زمزمته فلم يرض عنها تمويلا، فالعربي أولى بذلك وأحق، لأن لغته تجمع من خصائص البيان مالا يوجد جزء منه في لغة الزنج أو لغة الصين. ولأن لغته كانت –في وقت ما– لسان معارف البشر، وكانت –في زمن ما– ترجمان حضاراتهم. وكانت –في وقت ما– ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت –في وقت ما– هادية العقل الغربي، الضال إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت –في جميع الأوقات– مستودع آداب الشرق، وملتقى تياراته الفكرية، وما زالت صالحة لذلك لولا غبار من الإهمال علاها، وعاق من الأبناء قلاها، وضيم من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها، وهي قبلُ وبعدُ كل شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، ورائدة إلى الأفكار، ودخلت به إلى الهند والصين، وقطعت به البحار والفلوات، وفيها من عناصر البقاء ومؤهلات الخلود ما يرشحها للسيطرة والتمكن، فقد احتوتها الرطانات من كل جانب، ودخلت عليها دخائل العجمة واللكنة، فما نال كل ذلك منها نيلاً، وإن لغة يصيبها أقل مما أصاب اللغة العربية من عقوق أبنائها وحرب أعدائها، لحقيقة بالاندثار والفناء، ولكنها لغة العرب..." ٣٠.

لاشكّ أنّ لغة الأمة هي رمز رقيها، وهي عنوان حضارتها، بل الدليل على وجودها أمة حية بين الأمم الحية، وإن مصير كل أمة مرهون بمصير لغتها القومية قوة وضعفا، رقيا وانحطاطا، حياة وموتا، يقول الرافعي في هذا الشأن: "... وأما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها، وحقائق نفوسها...")٣١.

ويقول علماء التربية: "...إن اللغة هي التي تكوّن الناس أكثر مما يكونها الناس، وتصنع العقول والأفكار أكثر مما تصنعها العقول والأفكار...")٣٢. فالحرب –في رأي علماء الاجتماع– ليست سوى تضحية ضرورية من المجتمعات ببعض أفرادها في سبيل الإبقاء على تراثها الثقافي كمظهر من مظاهر إبقاء الجماعة لنفسها، لأن الأفراد زائلون دائما بحكم طبيعتهم البشرية. أما الثقافة إذا ضاعت، فسيترتب عليها ضياع الجماعة نفسها(٣٣، واللغة وعاء لحفظ الثقافة ووسيلة التعبير عنها، والعَرَبَة التي تنقلها عبر الأجيال، وكما لا يمكن وجود ثقافة بدون لغة، لا توجد لغة بدون ثقافة، ولا يوجد الاثنان بدون مجتمع بشري، يقول الإبراهيمي: "...فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء، كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء..." ٣٤، وكما ترتبط اللغة بالثقافة، ترتبط بالدين –أيضا– وخاصة إذا كان الدين سماويا، وقد نزل بتلك اللغة، كما هو الشأن بالنسبة للإسلام واللغة العربية، إذ تدعم اللغة العربية الدين الإسلامي وتنشره، كما ينشر الدين الإسلامي اللغة العربية ويفرضها على الألسن، ولكونها لغة تأدية شعائره، يتضح ذلك فيها ما أحدثه القرآن الكريم من أثر في الأدب العربي، أسلوبا ومضمونا، فالإسلام والعربية –في رأي الإبراهيمي– مُتلازمان لا يفترقان، حيث يقول: "...إن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة فهو –منذ احتل الجزائر– عامل على محو الإسلام، لأنه الدين السماوي، الّذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام..." ٣٥، ويقول أيضا: "...إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة، وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، ومن يستقرئ خاصة هذه اللغة، لعلم الطب وحده يتبيّن مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع، وقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى، يوم كان العالم كله يتخبط في ظلمات الجهل، هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم، وآوته ونصرته، أيها الإخوان هذا فضل لغتكم على المدنية الإنسانية وفضلها على الأمم غير العربية، وأما فضلها على (الأمم العربية)، فإنه يزيد قدرا وقيمة على فضلها على الأمم الأخرى، وإذا قلنا: الأمم العربية فإننا نعني الأمم الإسلامية كلها، لأنها أصبحت عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام..." ٣٦، فاللغة هي ذلك الاسمنت الّذي يضمن وحدة البنيان القومي، والذي بدون تلاحمه لا يمكن أن يكون أي كيان لأمة من الأمم.

الإحالات

١)- آثار الإبراهيمي، عيون البصائر ،ج٢ ،ش،و،ن،ت، الجزائر ص ٦٤٨
٢)- أثار الإبراهيمي، عيون البصائر ص٦٤٨
٣)- عن محاضرة الأستاذ محمد بن ذياب في ملتقى جامعة وهران.
٤)- الدكتور عبد المالك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير و التأثر، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨١م،ص ١١٠.
٥)- للاطّلاع على أساتذة مكتب عنبر ينظر كتاب الأستاذ ظافر القاسمي (مكتب عنبر) دار العلم للملايين- بيروت ١٩٦٤م.
٦)- مجلة الثقافة (الجزائر) ٨٤-٩ سنة ١٩٧٢م ص١٠٠ وما بعدها، تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر.
٧)- مجلة التهذيب الإسلامي سنة ١، العدد ٥، ٦/١٤.
٨)- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة مج١، ٢/١٤٠.
٩)- آثار الإبراهيمي، عيون البصائر
١٠)- أثار الإبراهيمي، عيون البصائر ٦٥٠.
١١)- عبد المالك مرتاض فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائري ١٩٨٣م
١٢)- عيون البصائر ٦٥٠.
١٣)- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج٢١ سنة١٩٦٦م، ص١٤٠.
١٤)- مجلة الثقافة، جزائرية ع٨، ١ سنة ١٩٧٢، ص١٠١.
١٥)- مقابلة شخصية مع الأستاذ مصطفى المحايري في بيته في شهر مايو سنة ١٩٨٤م وعندئذ عمره ٨٢ سنة أمد الله في حياته.
١٦)- آثار الإبراهيمي، عيون البصائر ٢/٦٤٧.
١٧)- آثار الإبراهيمي ٤/٣٣.
١٨)- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٣م، ١٦/١١٤.
١٩)- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٦/١١٤.
٢٠)- المرجع نفسه.
٢١)- آثار الإبراهيمي، عيون البصائر ٣٩١ وما بعدها.
٢٢)- نفسه.
٢٣)- نفسه ١/٢٥٨-٣٦٤.
٢٤)- آثار الإبراهيمي ١/٢٥٨-٣٦٤.
٢٥)- نفسه.
٢٦)- آثار الإبراهيمي، عيون البصائر ٣١٠.
٢٧)- مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، مطبعة البعث بقسنطينة ط١، عام ١٩٧٥م، ٢٩.
٢٨)- آثار الإبراهيمي ٤/٣٢.
٢٩)- أثار الإبراهيمي، عيون البصائر ٣١٣.
آثار الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ٣١٠ وما بعدها. ٣٠)-
٣١)- مصطفى صادق الرافعي وحي القلم، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ٣/٣٢-٣٣.
٣٢)- د. تاركي رابح، دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٨٢م، ١٠٨.

٣٣)- مصطفى صادق الرافعي وحي القلم ٩٨.

٣٤)- آثار الإبراهيمي ١/٢٥٩.

٣٥)- نقلا عن مجلة الثقافة، السنة ١٥ ع٨٦، مايو-يونيو ١٩٨٥م، محاضرة للإبراهيمي كان قد ألقاها في (ندوة الأصفياء) تحت عنوان (مشكلة العروبة في الجزائر) بمصر سنة ١٩٥٢م، ٤١٩.

٣٦)- أثار الإبراهيمي ١/٢٦٢، ٢٦٣.

المراجع

- آثار الشيخ الإبراهيمي ،ش، و،ن،ت،الجزائر ،عيون البصائر ، ج١ ، ج٢ ، و ج٤
- ، إنية وأصالة، مولود قاسم نايت بلقاسم ، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، مطبعة البعث بقسنطينة ط١، عام ١٩٧٥م، ٢٩.
- الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر ، عبد الملك مرتاض ،منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٨١.
- تركي رابح، دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٨٢م، ١٠٨
- صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين ،صلاح الدين القاسمي ، المطبعة السلفية ، دمشق ،١٩٥٩م ،.
- فنون النثر الأدبي في الجزائر ، عبد الملك مرتاض ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٨٣ .
- مكتب عنبر ، ظافر القاسمي ، دار العلم للملايين ،بيروت ، سنة ١٩٦٤ .
- وحي القلم،مصطفى صادق الرافعي ، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ٣/٣٢-٣٣.
-
- الدوريات٦٦.
- مجلة التهذيب الإسلامي ،الجزائر ، س١،ع٥ سنة١٩٦٩.
- مجلة الثقافة ، وزارة التعليم والثقافة ، الجزائر ، الأعداد : ٠٨، ٨٧، عام ١٩٧٢ .
- الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية بالجزائر ،ع ٨، س٢ ،١٩٧٢.
- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،سنة ١٩٦٣ ، وسنة ١٩